النُّكَتُ النّحويّةُ في القرآنِ الكريمِ من خلال (الكشّاف) للزمخشري.

د. عقيلة لعشبي

جامعة مولود معمري تيزي وزو

البريد الإلكتروني: akilalachebi9@gmail.com

الملخّص: يتناول هذا المقال الحديث عن النّكت النّحويّة في القرآن الكريم من خلال كتاب كبير في الدراسات التفسيريّة والذي هو كتاب **(الكشّاف)** للزمخشري ، الذي تصدّى لعرض الآيات القرآنيّة التي تحتوي على نكت نحويّة وشرح تأويلاتها ، ومعنى النكتة: الفكرة اللطيفة المؤثّرة في النفس ، أو بتعبير أدقّ المسألة العلميّة الدقيقة التي يتوصل إليها بدقّة وإنعام فكرٍ ، فقد استطاع الزمخشري بمعطيات علم النّحو من كشف الكثير من التأويلات والمعاني الجديدة للآيات القرآنيّة التي قلّما يمكن التنبه إليها من غير فهم معاني الدلالات النّحوية.

الكلمات المفاتيح: النّكت ؛ النّحو ؛القرآن الكريم ؛ الزمخشري.

Grammatical witticism in the Holy Koran through the book (El Kachaf) of EL ZAMAKHCHARI.

Abstract:The present article deals with the grammatical witticism in the Holy Koran through the book in interpretation studies of EL ZAMAKHCHARI(El Kachaf), this later was the pioneer in exposing Koranic verses containing grammatical witticism.

Witticism means a kind idea which let an impression, in other words, a particular scientific idea reached with precision and delicate idea. EL ZAMAKHCHARI could with grammatical data discover many new

interpretations and meanings of the Koranic verses which could not be perceived without understanding the meaning of grammatical data.

Key words : grammatical witticism;Holy Koran; EL ZAMAKHCHARI:

المقدّمة: يعدّ نزول القرآن الكريم باللغة العربيّة أكبر حدثٍ في تاريخ هذه اللّغة ، وأشرف لقبٍ لها على مرّ العصور ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعْقِلونَ** ﴾ [يوسف ،2] وقال في موضعٍ أخر مخاطبا نبيَّه المصطفى: ﴿ **فَاستَمْسِكْ بالذِي أُوحِي إليكَ إنَّكَ على صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ، وإنَّهُ لَذِكْرٌ لكَ ولقَوْمِكَ**... ﴾ [الزخرف ، 43-44] أي شرفٌ لك ولقومك...

وقد استطاعت العربيّة بفضل راية الإسلام أن تبسط من سلطانها على كلّ شبه الجزيرة العربيّة ، وإلى أواسط آسيا وشواطئ نهر الهند شرقا وإلى مصر وإفريقيا والأندلس غربا وأضحى تعلّمها والتفقّه فيها مطلبا ثمينا في هذه الأقطار ، كمّا استطاعت أيضا بفضله أن تحافظ على جلّ خصائصها الصوتيّة والصرفيّة والمعجميّة والدلاليّة إلى الحين على الرغم من قدمها الضارب بالجذور إلى العرب البائدة من عادٍ وثمود ، يقول مصطفى صادق الرافعي (ت1937م) عن فضل القرآن الكريم:(**إنّه يدفع عن اللغة العربيّة النسيانَ الذي لا يُدفَعُ عن شيءٍ**)[1].ولا يخفى على أحدٍ خصائص هذه اللغة الساميّة كونها ذات فصاحةٍ وبيانٍ ، وإعجاز في ألفاظها وأساليبها ، وأنّها أكثر تأديّةً للمعاني التي تختلج بالصدور ، فلا يضيق العربي الفصيح من أن يؤدّي بها ما فيه من خلال تراكيبها النّحويّة الفريدة وصيّغها الصرفية ، وقد كان لعلم النّحو موضع شريف في تدبّر معانيها يقول أبو العباس أحمد بن يحي الملّقب بثعلب (ت291ه) خاتم المدرسة النّحوية الكوفيّة: (**لا يصحّ الشعرُ ولا الغريب ولا القرآن إلاّ بالنّحو ، فالنّحو ميزان هذا كلّه ، فتعلّموا النّحو فإنّه أعلى المراتب**)[2].

ولقد صوّر القرآن الكريم الإعجاز النّحوي في أكثر من موضع ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ **ويومَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ من في السمواتِ ومن في الأرضِ ...** ﴾[النمل ، 87] لِمَ جاء الفزع بلفظ الماضي وليس المضارع ، وكيف وقع الفزع والنفخ لم يقع بعد ؟ !

وفي سورة الكهف قول الخُضر لسيّدنا موسى: ﴿ **... سَأُنَبِّئُكَ بتَأْويلِ ما لمْ تَسْتَطِعْ عليه صَبْراً** ﴾[الكهف ،78] ، ولمّا انتهى من إخباره أسباب تصرّفاته قال: ﴿ **... ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ**

تَسْطِعْ عليه صَبْرًا ﴾[الكهف ،82] بحذف التاء في تستطع.
ألاّ تصوّر مثل هذه السمات النّحوية الغريبة إعجاز اللغة العربية في حدّ ذاتها ؟

ولقد اعتنى أبو القاسم محمود الزمخشري(ت538ه) في مؤلّفه العظيم **(الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)** بمثل هذه الظواهر بالاعتماد على معطيات علم النّحو للكشف عن تأويلات وحقائق جديدة للآيات القرآنية وسمّاها بـ"النكت اللطيفة" وحاول تفسيرها ،وهو ما يوحي إليه عنوانه ، وقد سلك نفس المسلك ضياء الدين بن الأثير (ت637ه)في مؤلّفه(**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**)حين استعان بأدوات علم النّحو لفتح الأبواب المقفلة معانيها خصوصا في الفصل الذي خصصه للحروف العاطفة والحروف الجارة ، وقال عنها إنّ مواضعها في القرآن الكريم كثيرة جدا وإنّه قلّما يفطن القارئ إليها رغم أهميّتها في تفسير المعاني. وقد سلك أيضا هذا المسلك في العصر الحاضر الأسلوبي الأمريكي ميشال ريفاتير(ت2004م) حين قرر أنّ المعطيات النّحوية هي التي تبرز جمال الأسلوب ، فلابدّ من حمل القارئ للانتباه إليها ، لأنّه كلّما غُفل عنها شُوّه النص ، وهذا في الباب الذي خصصه لعلم أسلوب الجمل. وكثيرة هي أدوات النّحو التي ينبغي الوقوف عليها في القرآن الكريم لأنّ التمعّن فيها يكشف عن حقائق مهمّة لذا يعالج هذا البحث موضوعا شيّقا في الدراسات القرآنية النّحوية كونه يكشف عن إسهامات أدوات النّحو من حروف جرٍ وحروف عطفٍ وغيرها من حروف المعاني وصيّغ الأفعال ومباني الأسماء في فهمٍ شيّقٍ وتأويل جديد للآيات القرآنية من خلال مصنّف عظيم في الدراسات التفسيرية ألاّ وهو (**الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**) لصاحبه الزمخشري من متأخّري المدرسة النّحوية البغدادية الذي تفطّن إلى أسرارٍ لطيفةٍ في شرح الآيات من خلال ما وراء البنى النّحوية من معانٍ ، والتي لا يمكن بأيٍ حال من الأحوال أن تترجم إلى اللغات الأخرى كما ينبغي لأنّها تكشف عن خصوصيات اللّغة العربيّة وسماتها المنفردة ، فهلاّ استكشفنا بعضها ؟

العرض: ينفرد القرآن الكريم عن باقي الكتب السماوية بأنّه يترك باب الاجتهاد في تفسير آياته مفتوحا أمام الفقيه في أسرار العربية في كلّ الأزمنة بما أوتي من علمٍ ووسائلَ ، يقول مصطفى صادق الرافعي في هذا الصدد: (**لم يأت دين من الأديان بمعجزةٍ توضع بين أيدي الناس يبحث فيها أهل كلّ عصرٍ بوسائل عصرهم غير الإسلام بما أنزل فيه من القرآن ، فكأنّ النبوّة في هذا الكتاب متجددة أبدا ، يلتقي بروحها كلّ من يفهم دقائقه وأسراره فلا يلبث**

البليغ الذي يفهم القرآن أن يستيقن في نفسه أنّه حارسٌ على اللغة ثم يغلو في هذا اليقين فإذا هو قد أوحت إليه نفسه أنّه ليس حارسا على اللغة العربية فحسب ، ولكنّه كذلك من حراس المعجزة)[3] .

فمن الآيات القرآنيّة التي حاول الزمخشري تفسيرها بما أوتي من علم قوله تعالى: ﴿ **فإذا جاءتهم الحَسَنَةُ قالوا لنا هذه وإن تُصبهم سيّئَةٌ يَطَّيَّروا بموسى ومن معه...** ﴾ [الأعراف ،131] قال الزمخشري: لِمَ عُرِّفت الحسنة ونُكّرت السيئة ؟فسلك فيها مسلكا حسنا بقوله لأنّ جنس الحسنة يقع باتّساع وبكثرة ، أمّا السيئة فلا تقع إلاّ نادرا ، ولا يقع إلاّ شيءٌ منها لذا نكّرت هذه وعرّفت تلك.

ونكتة أخرى في قوله تعالى: ﴿ **والشّمسِ وضُحاها ، والقمرِ إذا تلاها ، والنّهارِ إذا جلاّها ، واللّيلِ إذا يغشاها ، والسّماءِ وما بناها ، والأرضِ وما طحاها ، ونفسٍ وما سوّاها** ﴾ [الشمس ،1-7] وهي لِمَ نُكّرت النفس وما قبلها معارف ؟قلت فيه وجهان أحدهما أنّه يريد نفسا معيّنة من بين النفوس وهي نفس آدم ، والثاني أنّها حملا على قوله تعالى: ﴿ **وإذا الجنّةُ أُزْلِفَت ، علمت نفسٌ ما أحضرت** ﴾ [التكوير ،14،13] و: ﴿ **وإذا القبور بُعْثِرت ، علمت نفسٌ ما قدّمتْ وأخّرتْ** ﴾ [الانفطار ،4-5].

وفي سورة الكهف سرٌ من الأسرار الغامضة وهو عدد فتية الكهف أثلاثة هم أم خمسة أم سبعةٌ ؟ في قوله: ﴿ **سيقولونَ ثلاثةٌ رابعُهُم كلبُهم ويقولونَ خمسةٌ سادسُهم كلبُهُم رجمًا بالغيب ويقولونَ سبعةٌ و ثامنُهم كلبُهُم...** ﴾ [الكهف ، 22] قالت اليهود هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، والنصارى خمسة سادسهم كلبهم والمسلمون سبعة وثامنهم كلبهم. وقيل إنّهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات بإخبار جبريل عليه السلام رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، أما الزمخشري فقد اتّكأ على قاعدة واو الثمانية التي قال عنها النّحاة إنّها لا تكون إلاّ حين يكون معدودها ثمانية ، فلما دخلت واو الثمانية على الجملة الثالثة دون الأولى والثانية علمت أنّ عددهم سبعة وكلبهم ثامنهم. وموضع واو الثمانية في الآيات كثير جدا...

وفي سورة البقرة نكتة لطيفة في **قوله: ﴿أفكُلَّما جاءكم رسولٌ بمَا لا تهوى أنفسُكُم استكبَرْتم ففريقًا كَذَّبْتم وفريقًا تقتلونَ** ﴾ [البقرة ، 87] قال: لِمَ ورد تقتلون مضارعا ، وحقّه أن يكون ماضيا قياسا على ما سبقه ؟ فأجاب: لأنّ التعبير بالمضارع يفيد تصوير فظاعة الأمر فأُريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب ، ولو كان بالماضي لما أفاد هذا ، والوجه الثاني أن يراد فريقا كذبتم من الأنبياء ، وفريقا تقتلونهم بعد ، لأنّكم تحومون حول قتل

محمد ، أو لم تسحروه وسممتم له شاة خيبر ، وبعدها مات ، وقال عند موته: (**قال يونس عن الزّهري قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ، ما أزالُ أجدُ ألَمَ الطعام الذي أكلتُ بخيبرَ ، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبْهَري من ذلك السُّمّ**)[4]فدلالة المضارع في تقتلون كشفت نوايا بني إسرائيل في معاداة الأنبياء وقتلهم وتنبّأت عن قتلهم لمحمد أيضا.

ويصوّر المضارع في سورة الحجّ دلالة عظيمة في قوله تعالى: ﴿ **ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزلَ من السماءِ ماءً فَتصبحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً إنَّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ** ﴾ [الحجّ ،63] فوروده مضارعا هنا ذو دلالة مهمّة إن لم نقف عليها شُوّه المعنى رغم أنّ الحق فيه أن يرد ماضيا وهي إفادة بقاء أثر المطر ومنافعه لمواسم طويلة بعد انقطاعه ، فحين تقول:**أنعم علي فلان بكذا فأروح وأغدو شاكرا له** ، يعني أنّك لن تنسى له معروفه ولو قلت: **فرحت وغدوت** بالماضي لما وقع له نفس المعنى.

وقال في قوله تعالى: ﴿ **اصبِرْ على ما يقُولونَ واذْكُرْ عبدَنَا داوودَ ذا الأيْدِ إنّهُ أوّابٌ ، إنّا سَخّرْنَا الجبالَ معَهُ يُسبّحْنَ بالعشيّ والإشراقِ ، والطّيْرَ محْشُورَةً كلٌّ لهُ أوّابٌ** ﴾ [ص ،17-19] هل من فرق بين يسبحن ومسبحات ؟ قلت: نعم وما اختير المضارع على اسم الفاعل إلاّ لذلك ، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال من غير انقطاع حتى من غير معيّة داوود ، وكأنّ السامع محاضر في كلّ زمان تلك الجبال يسمعها تسبّح.

وعن قوله محشورة في مقابل يسبحن أليس من الحقّ أن يأتي يحشرن ؟ قلت: لمّا لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيءٍ جيء به اسما لا فعلا ، أي لمآ كان الحشر من فعل الله وكان الحشر دفعة واحدة دون استمراريّة في الحدوث جيء به اسما لا مضارعا.

وفي قوله في سورة النمل: ﴿ **ويَوْمَ يُنفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ منْ في السمواتِ ومنْ في الأرضِ إلاّ من شاء الله...** ﴾ [النمل ، 87] لِمَ قيل ففزع دون فيفزع ؟ أليس المضارع أنسب هنا على الماضي؟ وكيف وقع الفزع والنفخ لم يقع بعد؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وكأنّه كائن لا محالة ، واقع على أهل السموات والأرض لأنّ الفعل الماضي يدلّ على وجود الفعل وكونه مقطوعا به.

وكذلك الأمر في سورة هود في قوله تعالى: ﴿ **ولقد أرسلنَا مُوسَى بآياتِنَا وسُلطانٍ مُبِينٍ ، إلى فرعونَ ومَلإِيْهِ فاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرعَونَ ومَا أَمْرُ فرعونَ برَشِيدٍ ، يَقدُمُ قَوْمَهُ يومَ القِيامةِ فَأَوْرَدَهُم النَّارَ وبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ** ﴾ [هود ، 96-98] لِمَ جيء بلفظ الماضي وهلا قيل يقدم قومه فيوردهم النار ؟ قلت: لأنّ الماضي يدلّ على أمر موجود مقطوع به ، وإن لم يحدث بعد...

فمثل هذه الدلالات العظيمة التي يضيفها علم النّحو إلى التفسير تحتاج الوقوف عليها مطوّلا ، وعنها قال ابن الأثير:(**انظر أيّها المتأمّل إلى هذه النكت الدقيقة التي تمرّ عليها في آيات القرآن وأنت تظنّ أنّك فهمت فحواها واستنبطت رموزها**)[5] وقال عنها في موضع حديثه عن حروف العطف وحروف الجر: (**إنّ هذه لطائف ودقائق لا توجد إلا في هذا الكلام الشريف ، فاعرفها ، وقس عليها**)[6].

ومن نكت ابن الأثير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصّدَقَاتُ لِلفُقَراءِ والمَسَاكينِ والعَاملينَ عليها والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم وفِي الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وفِي سبيلِ اللهِ وابن السبيلِ فَرِيضَةً من الله...** ﴾ [التوبة ، 60] ، قال فيها ابن الأثير إنّما عَدَل عن اللام في الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم إلى "في" في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنّهم أرسخ في استحقاق التصدّق عليهم ممّن سبق ذكرهم باللام أي الفقراء والمساكين وغيرهم ، لأنّ "في" معناها للوعاء ، فنبّه على أنّهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء وأن يُجْعَلوا مظنّة لها لما في فكّ الرقبة والغرم تخلص من ضيق الحال. وتكرير "في" في قوله "وفي سبيل الله" دليل على ترجيحه على الرقاب والغارمين. وكان أن يقول: "وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل" ، فلما جيء بفي مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله عُلِمَ أنّ سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه.

وقد حلل الزمخشري آيات أخرى تحليلا فنيّا أوحى عن عمق تأمّله وحسن تخلصه إلى المعاني ففي قوله تعالى: ﴿ **واضْرِبْ لهُم مَثَلاً رَجُلين جَعَلْنَا لأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ من أعنابٍ وحَفَفْنَاهُما بنخلٍ وجعلنَا بينَهُما زرعاً ، كلتَا الجنَّتَيْن أَتَتْ أُكُلَهَا ولمْ تَظْلِمْ منه شيئًا وفَجَّرْنَا خلالَهُما نَهَرًا ، وكانَ لهُ ثَمَرٌ فقالَ لصاحبِه وهوَ يُحَاوِرُه أنا أكثرُ منكَ مالاً وأَعَزُّ نفرًا ، ودخلَ جنَّتَهُ وهوَ ظالمٌ لنفسِهِ...** ﴾ [الكهف ،32-35] قال: لِمَ أفردت الجنّة بعد تثنيّتها ؟ قلت: لأنّ الله قد جعل له جنّتين فلمّا كفر دخل الجنّة التي ملكها في الدنيا فقط ، وكأنّ لا نصيب له في الجنّة التي وعد الله بها المؤمنين والتي قد ملّكها إيّاه قبل أن يكفر.

ومن تمييز العدد سبعة أن يأتي بدلالة ومعنى جمع القلّة وإن كان بصيغة الجمع السالم كقوله: ﴿ **وسبعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ** ﴾ [يوسف ،43] فماذا لو أتى بصيغة منتهى الجموع في قوله: ﴿ **مثلُ الذينَ يُنْفِقونَ أموالَهُم في سبيلِ اللهِ كمَثلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سبعَ سَنَابِلَ في كلِّ سُنبلةٍ مائةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضاعفُ لمنْ يشاءُ...** ﴾ [البقرة ،261] فقال: إنّ هذا مراعاة لأحوال المنفقين ، فخصّهم بإحدى صيغ جمع الكثرة فيضاعف لهم السبعة سبعة مائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك.

ومن تصويره للإعجاز اللغوي في تمييز العدد قوله تعالى عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ **ولقد أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِم أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وهُم ظَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت ،14] ، لِمَ جاء تمييز العدد *ألف* بسَنَةٍ ، وتمييز العدد خمسين بعامٍ ؟ قيل لسببين لتفادي تكرار لفظ واحد بمعنى واحد ، ولأنّ العرب تعبّر عن سنة القحط والجفاف والشدائد بالسنة فيقولون "أصابتنا سنةٌ" ، ولقد عانى نوح من أذى قومه زمنا طويلا فعبّر عن ذلك بالسنة. ولمّا لم يكن في الخمسين عاما المستثنية شيءٌ من الأذى والشدائد فسّر عددها بالعام.

وفسّر اقتران الليل بالمفعول له والنهار بالحال في قوله: ﴿**ألمْ يَرَوْا أنَّا جَعَلنَا اللَّيْلَ لِيَسكُنُوا فيهِ والنَّهارَ مُبْصِرًا إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ** ﴾ [النمل ،86] بمراعاة حالهما لأنّ الليل جُعل ليسكنوا فيه فقط ، وحال النهار لإبصار طرق التقلّب في المكاسب ، ولو طبق بينهما لفاتت الفصاحة فيهما.

وممّا لا شك فيه أنّ الزمخشري قد استفاد كثيرا من المنهج الذي رسمه عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي حوّل من علم النّحو المغلق إلى دراسات أسلوبية تعنى أوّلا وأخيرا بالمعنى ، فتراه في كشّافه لا يكشف عن الوظائف الصوريّة التي تؤدّيها الأدوات والعوامل النّحوية من رفع ونصب وجر ، بل يركز على وظائفها الحيّة والمعاني الإضافية المستفادة منها من سياق الآيات ، فمثلا في قوله تعالى: ﴿ **وإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لكُمْ منَ النِّساءِ مَثنَى وثُلاَثَ ورُبَاعَ فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فواحدةً أو ما ملكتْ أيمانُكم ذلكَ أدنَى ألاَّ تَعُولُوا** ﴾ [النساء ،3] قال فيها الزمخشري لِمَ جاء العطف بالواو دون أو ؟ قلت لأنّه إن أراد الناكح التعدد وجب عليه الجمع بين نسائه عن طريق الجمع والعدل بينهنّ لدلالة واو العطف على الجمع والعدل بين معطوفاتها ، وإن خاف فواحدة تكفي أو ما ملكت أيمانه على أساس التخيير بينهما لا الجمع لقلّة تبعتهنّ فعدلت بينهنّ أم لم تعدل سواء.

وتجده أحيانا أخرى يحاول إيجاد مخارج لطيفة المسلك لما شرد عن الأحكام ففي قوله في سورة النمل: ﴿ **ولقدْ آتَيْنَا داوودَ وسليمانَ عِلْماً وقالاَ الحَمْدُ للهِ الذي فَضَّلَنا على كثيرٍ من عبادِهِ المؤمنينَ** ﴾ [النمل ،15] قال: أليس هذا موضع الفاء دون الواو ، كقولك أعطيته فشكر ومنعته فصبر ؟ فشكر وصبر مطاوعة لما قبلها ، وفعل المطاوعة لا يُعطف إلاّ بالفاء ، قلت: عطف بالواو لأنّ ما قاله إشعار بأنّه بعض ما أحدث فيهما من ردّ فعل ، ولو عطف بالفاء وجدت حمدهما كلَّ ردّهما على جميل الله فيهما.

وفي أوائل سورة البقرة تخريجٌ لطيفٌ في قوله تعالى: ﴿ **ألم ، ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه** ﴾ [البقرة ، 1-2] وهو لِمَ صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيدٍ ؟ قلت: لوجهين أنّ العرب تشير إلى القريب بالبعيد ، والثاني لعلوّ منزلة القرآن بين الكتب الأخرى فالبعد هنا باعتبار علوّ المنزلة.

وفي سورة النساء نكتة حسنة في قوله تعالى: ﴿ **وما لكمْ لا تُقاتِلُونَ في سبيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفينَ منَ الرّجالِ والنّساءِ والوِلْدَانِ الذينَ يَقُولونَ رَبَّنا أَخْرِجْنَا منْ هذهِ القريَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعل لنَا منْ لدُنك وليًّا...** ﴾ النساء ،75] قال لِمَ ذكر الظالم مذكّرا وموصوفه مؤنّثا ؟ قلت: لأنّ الظلم أسند إلى أهلها وأهلها مذكرٌ ، ولو قيل القرية الظالمة أهلها فقد نسبت الظلم إلى القرية وهي مكّة وهي شريفة الظلم لأهلها.

ومن النكت البلاغيّة التي حللها تحليلا دقيقا قوله عن فائدة التكرير في سورة غافر: ﴿ **وقَالَ فِرعونَ يَا هَامَانُ ابْنِ لي صَرْحًا لَعَلّي أبلغُ الأَسبَابَ ، أسبابَ السمواتِ فَأَطَّلِعَ إلى إلهِ مُوسَى وإنّي لأَظُنُّه كَاذِبًا...** ﴾ [غافر ، 36-37] إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، ولمّا كان بلوغ السموات أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوّقة إليه ليعطيه السامع حقّه من التعجّب ، فأبهمه ليشوّق إليه نفس هامان ثمّ أوضحه.

وعن فائدة الاستفهام في قوله: ﴿ **ألَمْ نشرحْ لك صدرَك** ﴾ [الشرح ، 1] قال: جاء انتفاء الشيء على وجه الإنكار فأراد إثبات الشرح وإيجابه.

ومن المسائل البلاغيّة التي عنيت عناية فائقة باب التقديم والتأخير الذي لا يدرك فضله إلاّ الفقيه في اللغة ، ففي قوله تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الذِي بِيَدِه المُلْكُ وهوَ على كلّ شيءٍ قديرٌ ،**

الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليَبْلُوَكُم أَيُّكم أحسَنُ عمَلاً... ﴾ [الملك ،1-2] أليست الحياة أسبق من الموت فلِمَ قُدّمت الموت وأخّرت الحياة ؟ قيل:لأنّ الكائن يقدر له جبريل موته وهو في رحم أمه قبل أن يولد لذا خلقت له موته قبل حياته.

ومن آيات الخطاب العام قوله: ﴿ **يَا أَيُّها النَبيُّ إذا طلقتُم النِّساءَ...** ﴾ [الطلاق ، 1] لِمَ خصّ النبي بالنداء ثمّ عمّ الخطاب ؟ قلت: لأنّ النبيّ إمام أمّته وقدوتها ، وحده حاكمها فسدّ مسدّ جميعها ، وفي قوله: ﴿ **ولله يَسجدُ مَا في السّمواتِ ومَا في الأرضِ من دَابَّةٍ والملائكةُ وهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ** ﴾ [النحل ، 49] قال: هلاّ جيء بمن دون ما تغليبا للعقلاء على غيرهم ؟ قلت: لو جيء بمن كان الخطاب متناولا للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم.

خاتمة: كثيرٌ هم أمثال الزمخشري وابن الأثير الذين أفادوا من علم النّحو في تحليلاتهم للنصوص القرآنيّة والنصوص الأدبيّة ، فقد تمكّنوا بمعطياته ومفاهيمه من الغوص في أعماق الدلالات وأغوار المعاني فتركوا أثرا طيّبا في قراءاتهم للنصوص مستفدين جميعا من المنهج الذي رسمه الجرجاني في أنّ النّحو دون المعاني أحلامٌ قاحلة لا ينبغي التركيز على وظائفه دون أسراره.

لكن رغم تصدّر (**الكشّاف**) قائمة الكتب التفسيرية لتصويره بمنتهى الدقّة الإعجاز القرآني في وجوهه البلاغيّة والأسلوبيّة والنّحويّة ، ومزاياه الجمّة كإحاطته بالخطاب إحاطة كاملة ووافيّة من كلّ الجوانب أثناء الشرح ، وترويض العقل على الافتراض والاستنتاج والتشبيه وما شابه ذلك إلاّ أنّه لم يسلم من الكثير من الانتقادات حيث يُوصَى القراء بأخذ الحيطة والحذر منه لكون صاحبه قد استغله لنشر آراء المعتزلة والدفاع عنها ، وانتقد لعدم التثبّت في صحّة أحاديثه ، وكونه أيضا قد أُلّف في عصر الركود اللغوي وما صاحب ذلك العصر من التخوّف من مؤلّفاته.

-قائمة المصادر والمراجع:

1 -القرآن الكريم برواية حفص.

2 -أبو العباس ثعلب ، مجالس ثعلب ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، د ط ، مصر ، 1948.

3 -محمود بن عمر أبو القاسم جار الله الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت ، 1995 ، ج 1 ، 2 ، 3 ، 4.

4 -ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، د ط ، مصر ، 1939 ، ج 2.

5 -محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، ط 1 ، دمشق ، د ت.

6 -مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة ، دار الكتاب العربي ، ط 9 ، لبنان ، 1973.

7 ـ يوسف أبو العدوس ، الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، ط 1 ، الأردن ، 2007.

هوامش البحث:

[1] .مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة ، دار الكتاب العربي ، ط 9 ، لبنان ، 1973 ، ص 14.

[2] .أبو العباس ثعلب ، مجالس ثعلب ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، د ط ، مصر ، 1948 ، ص 310.

[3] .مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة ، ص 14.

[4] ـ محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، ط 1 ، دمشق ، د ت ، ص 1086.

[5] .ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، د ط ، مصر ، 1939 ، ج 2 ، ص 8 .

[6] .ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ص 54.